دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الشخصيات بين الواقع التاريخي والمتخيل السردي في ثلاثية أحلام مستغانمي "ذاكرة الجسد، فوضي الحواس، عابر سرير": خالد بن طوبال إنموذجا
المصدر:	حوليات آداب عين شمس
الناشر:	جامعة عين شمس - كلية الآداب
المؤلف الرئيسي:	بوطيب، خديجة بوطيب عبدالقادر
المجلد/العدد:	مج47
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2019
الشهر:	مارس
الصفحات:	237 - 255
رقم MD:	1043298
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex, AraBase
مواضيع:	القصص العربية، السرد الأدبي، الشخصيات التاريخية، النقد الأدبي، مستغانمى، أحلام
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/1043298

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

حوليات آداب عين شمس المجلد ٤٧ (عدد يناير – مارس ٢٠١٩)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

الشخصيات بين الواقع التاريخي والمتخيل السردي في ثلاثية أحلام مستغانمي (ذاكرة الجسد، فوضى الحواس، عابر سرير) خالد بن طوبال إنموذجا.

خديجة بوطيب عبد القادربوطيب *

مدرس النقد الأدبي الحديث بقسم اللغة العربية بكلية الآداب بالوادي الجديد. جامعة أسيوط

المستخلص

تناولت هذه الدراسة شخصية خالد بن طوبال، وأسندت أحلام مستغانمي لهذه الشخصية دور البطولة في ثلاثيتها : (ذاكرة الجسد، فوضي الحواس، عابر سرير) . واستوحت أحلام مستغانمي هذا الاسم من التاريخ الجزائري، حيث يشير هذا الاسم إلى كلمة السر أثناء الثورة الجزائرية عام ١٩٤٥، وهو اسم مستوحى من التاريخ الإسلامي (خالد بن الوليد)، كذلك أضافت إلى اسم خالد لقب بن طوبال وهو اسم عريق لعائلة قسنطينية نضالت منذ عهد العثماني إلى الاحتلال الفرنسي عام ١٨٣٠. غير أنّنا نرى هنا كيف مدتْ الراوية هذا الاسم وربطته بالأدب الجزائري، من خلال رواية مالك حداد : ليس في رصيف الأزهار من يجيب.

و تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن مدى توّفق أحلام مستغانمي في المقاربة بين النص الأصلي، التاريخ والتصوير عبر مخيلة سردية وتمثيلها فنياً، ومدى ارتباط الحقائق بالحياة والأنموذج الاجتماعي والسياسي أو تجاوزها. ومدى تصوير حقيقة الصراع والتحولات التاريخية والاجتماعية في الجزائر.إنّ تحويل صراع الشعب الجزائري المرير الذي دار في القرن التاسع عشر مع الاستعمار فرنسي الذي استوطن الأرض وهتك العِرض لمدة تزيد على مائة وخمس وعشرين سنة إلى قصة مروية اكتسبت الخلود عبر هذا السرد.

اعتمدتُ في دراستي على منهج تأويلي (الهرمنيوطيقا)، وهو المنهج تبناه الفيلسوف الفرنسي بول ريكورPaul Ricour والتي فصله في كتابه : "الزمن والسرد في ثلاثة أجزاء.

ورصدتْ الدراسة أهم التغييرات السياسية والدينية على الشخصية الجزائرية منذ عهد الاستعمار الفرنسي إلى مابعده. كما ربطتْ بين دور تطرف السلطة والأصولية في الهجرة عن الوطن، و أثر السلطة الاجتماعية على حركة المجتمع الجزائري، واكتشفت ثراء النص الروائي وتفوقه على النص التاريخي دلالة وصدقاً.

الكلمات المفتاحية: خالد بن طوبال- ذاكرة الجسد- عابرسرير

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠١٧.

جسدت الراوّية أنماطاً مختلفة للشخصيات، تاريخية تراثية، تراوحت بين الشخصيات الفردية والاعتبارية، كما تراوحت العلاقات بين الشخصيات ما بين التكامل والتباين، بين الرفض والتمرد، وبين الوفاء والخيانة، ومن ثم لم تعتمد الراويّة على سمات ثابتة للشخصيات أوعلى متواليات زمنية، بل انساقتْ وراء تداعيات الخيال، ولم تحترم التراتبية الزمنية للأحداث التاريخية في الجزائر، ولكن يظل السؤال هل استطاعت الراوية على هذا النحو: أن تجعل من تاريخ ثورة الجزائرية حلماً ؟ وهل استطاعت الرواية أنّ تبعث الشخصيات التاريخية بوصفها رموزاً أبدية ؟ وكيف تمّ تحويرها وفق سجايا الخيال الفني، وما الآثار الدلالية التي خلفتها؟ ويمكن الوقوف على ذلك من خلال هذه الشخصية.

شخصية خالد بن طوبال.

أ ـ شخصية خالد بن طوبال كما وردت في التاريخ:

لقد وردت شخصية خالد في كتب التاريخ على هذا النحو، يقول المؤرخان مصطفى طلاس، وبسام العسيلي في كتاب: الثورة الجزائرية مايلي: عندما نتتبع الجذور التاريخية لكلمة خالد، نجد أن الكلمة قد استخدمت بوصفها كلمة السر ـ بوصفها رمزاً لخالد بن الوليد - لانطلاق الثورة الجزائرية في ليلة الاثنين الفاتح من نوفمبر عام ١٩٥٤، للبدء بالهجوم في كل أنحاء الجزائر على الوجود الفرنسي في الجزائر، ولقد تمّ الاتفاق على كلمة السر هذه، لتنفيذ عمليات الفدائيين كإشارة للتعارف، بينهم، وهكذا تمّ الانفاق على أنْ تكون الإجابة على تلك الكلمة - خالد بكلمة عقبة -، إشارة إلى عقبة بن نافع، الصحابي الجليل الذي فتح شمال إفريقية، وتوفي في الجزائر حيث دُفن في مدينة بسكرة [١].

تطرق المؤرخ إبراهيم كبة في كتاب: *أضواء على القضية الجزائرية* والمؤرخ محمد الصالح الصديق في كتابه: *قاهرة الاستعمار*، إلى اسم **زيان**، ولقد أطلقت أحلام مستغانمي على بطل ثلاثيتها اسمين: في الجزء الأول، *ذاكرة الجسد*، خالد بن طوبال، بينما في الجزء الثالث:*عابر سرير*، أطلقت على البطل نفسه، اسم زيان والذي يوحي باسم تاريخي، نسبة إلى اسم أبوزيان الذي جدد الثورة الجهوية في الجزائر بدء من ثورة الأمير عبد القادر الجزائري والتي بدأت عام ١٨٣٠ - ١٨٤٧، وبعدها ثورة أبوزيان والتي تزعم حركة المقاومة وبدأت عام ١٨٤٩ ودامت لمدة أربعة أشهر، التفتْ حوله قبائل الزعاطشة وتحصنوا بقريتهم الواقعة غرب بسكرة، ولم تستطع فرنسا اقتحامها إلا بعد قتال شديد وانتهتْ بإعدام الزعيم أبوزيان . ثمّ ثورة بوعمامة، التي بدأت عام ١٨٨١ - ١٨٨٢، بالجنوب الوهراني وثورة محمد المقراني بدأت عام١٨٧١ ١٩٠٤ في منطقة القبائل الجزائرية، واستمرت عشرة أشهر[٢].

تطرقت أحلام مستغانمي في *فوضى الحواس*إلى بطلها باسم **صاحب المعطف** في كل أحداث الرواية حتى خاتمتها، ثم يظهر اسمه الحقيقي في نهاية الرواية وهو خالد بن طوبال، وترى الباحثة أنّ أحلام مستغانمي، استخدمت هنا عبارة صاحب المعطف، كناية عن خالد بن طوبال مستلهمة في ذلك شخصية صاحب المعطف المشهورة في الذاكرة الجزائرية، وهي شخصية جزائرية تاريخية واقعية، وإذ، يروى لنا المؤرخ عاشور شرفي في كتابه: *القاموس الموسوعي*، حكاية صاحب المعطف، وهو شخصية من الوسط الفني، وعلامة مميزة في الكوميديا الجزائرية، شخصية المفتش الطاهر الحاج عبد الرحمن، ولد في ١٢ من أكتوبر ١٩٤٠ من الجزائر العاصمة ممثل فكاهي وكاتب سيناريو وحوار، وانتقل للعمل في المسرح عام ١٩٦٧، ولقد أطلق عليه صاحب المعطف من كثرة أعماله، التي ظهر فيها وهو يرتدي المعطف وأهمهامسرحية: *عطلة المفتش الطاهر*، عام ١٩٧٥،

*وفيلم: المفتش الطاهر يسجل*هدفاً، عام١٩٧٧، ووافته المنية وهو يتأهب لتصوير فيلم: *الجثة المزرعة*، وتوفي في ٥ من أكتوبر ١٩٨١ في باريس[٣] .

أما عندما نأتي للشق الثاني لهذا الاسم وهو**بن طوبال**، نجد المؤرخة فاطمة الزهراء قشي في كتاب: *قسنطينة مدينة الموروثات*، والمؤرخ، ولد الحسين محمد الشريف في كتابه: *عناصرللذاكرة حتى لا أحد ينسى* والمؤرخة، آسيا تميم: *الشخصيات الجزائرية*، *١٠٠شخصية التاريخية والفكرية*، قد تطرقوا للاسم من منظور اجتماعي، باعتباره اسماً مختزلاً في الذاكرة القسنطينية قبل الاحتلال العثماني للجزائر، وظهر كلقب لشخصية ضربت إلى أطناب جذورها لشجرة عائلة بقسنطينة، كما أنّها صمدتْ في وجه الهجمة الفرنسيّة البربرية، ولقد تمثل ذلك في شخصية تاريخية حاضرة في الوجدان الجزائري وهي شخصية: الأخضر بن طوبال واسمه الحقيقي سليمان بن طوبال من مواليد ١٩٢٣ في ميلة، قسنطينة، وهو أحد القادة التاريخيين للثورة، وألقى القبض عليه بعد حل المنظمة الخاصة عام ١٩٥٠، ثم عيّن عضواً في اللجنة الثورية للوحدة والعمل وانضم إلى مجموعة (٢٢) التّي فجرتْ الثورة التحريرية.أدى دوراً رائداً في هجومات ٢٠ من أوت ١٩٥٥في الشمال القسنطيني واستخلف زيغود يوسف بعد استشهاده في الولاية الثانية، وكان عضواً في المجلس الوطني للثورة الجزائرية ولجنة التنسيق والتنفيذ.عين وزيراً للداخلية في الحكومة المؤقتة الأولى والثانية، قبل أنْ يصبح وزيراً لدولة في أوت ١٩٦١، بعد الاستقلال بقى بعيداً عن الصراعات والأمور السياسية. وتوفي في ٢١ من أوت ٢٠١٠ في العاصمة الجزائرية [٤].

كذلك استعانت أحلام مستغانمي بالذاكرة الأدبية في توثيق اسم **خالد بن طوبال** من رواية *ليس في رصيف الأزها رمن يجيب*، لمالك حداد والتي تدور أحداثها حول نضال الجزائيين إبّان ثورة التحرير، كان اسم البطل خالد بن طوبال، وهو كاتب وصحفي يعتز بوطنيته وانتمائه للجزائر، ولقد تخلّت عنه حبيبته وهربت مع أحد الضباط المظليين الفرنسيين وماتت في حادثة قطار. لقد علم بذلك الخبر من إحدى الجرائد الفرنسية، وشعر خالد بن طوبال، وكأن الذي كان يدافع عنه قد مات، فالحبيبة هي الوطن والعرض، لذا، قرر الموت انتحاراً، وقفز من القطار الذي كان يستقله [٥] .

ب ـ شخصية خالد بن طوبال كما وردت في المقاربة بين التاريخ والمتخيل السردى:

عندما نعود إلى *ليس في رصيف الأزهار مَن يجيب*، لمالك حداد، نجد الاختلاف واضحاً بين ما تسرده الراوّية في *عابرسريرو* بين الرواية الأصل، فهي تقول عنها: ***" رواية صغيرة من مائة صفحة. لا يحدث فيها شيء تقريباً، عدا انتحار بطلها في آخر الرواية، عندما علم أثناء وجوده في فرنسا من الجرائد، أنّ" وريدة" زوجته التي يعشقها وقاوم من أجلها كلّ إغراءات" مونيك"، مستعجلاً العودة إلى قسنطينة ليراها، هربتْ أثناء غيابه مع أحد المظلّيين الفرنسيّين، وانفضح أمرها عندما ماتتْ معه في حادث.ولذا يلقي خالد بنفسه من القطار. شخص غيره كان فكّر في طريقة أخرى للموت، لكنّ القسنطيني الذي أمّه صخرة وأبوه جسر، يولد بعاهة روحيّة، حاملاً بذرة الانتحار في جيناته، مسكوناً بشهرة القفز نحو العدم، وتلك الكآبة الهائلة التي تغريك بالاستسلام للهاوية"*** *(عابرسرير،١٤٩).*

بينما رواية مالك حداد نجدها في تسع وعشرين ومائة ورقة، وردت على هذا النحو: "في هذه الجريدة التي اشترتها له ـ مونيك الخميس الأزرق، قرأ خالد بن طوبال في الصفحة الثالثة هذا الخبر الذي لأهمية له ـ مكتوباً بحروف صغيرة : تصاعد الإرهاب في

الجزائر و"(هذا العنوان كتب بأحرف أكبر) ثمّ يليه الخبر عديم الأهمية ...اغتيال بعض الإرهابين امرأة مسلمة وضابط مظلي فرنسي في شارع الهوة بقسطنطينة..ولقد سبق للضحية البائسة تأكيد اعتقادها في قيام جزائر فرنسية وذلك باشتراكها في جولة دعائية مع زوجة الجنرال... وقطعت منذ عدة شهور علاقاتها بزوجها صاحب الاسم المستعار خالدبن طوبال، وهذا الكاتب مازال الافتقار إلى السلطة يسمح له بالتعبير، ولستُ أعلم بوجود كاتب غيري باسم مستعار أو حقيقي يدعى خالدبن طوبال.. فقز خالد بن طوبال بين عارضي الخط الحديدي، كان يذهب إلى لغز قديم" .

نرى عدم التماثل بين الروايتن في تحديد اسم الزوجة وهي وريدة، ومونيك اسم الحبيبة عندمالك حداد، كذلك عند أحلام مستغانمي، وقد ذكر مالك بن حداد أنّ اسم بطل روايته، هو خالد بن طوبال، و هو اسم مستعار كان يوقع به مقالاته، كذلك أحلام مستغانمي كان بطل روايتها يوقع كتاباته باسم خالدبن طوبال وهو اسم كذلك مستعار.أما الاسم الحقيقي لم يصرح به مالك حداد بينما أحلام مستغانمي صرّحت باسمه زيان . وهو يعمل صحفياً وكاتباً في كلتا الروايتن..أما عن الأحداث فنرى شيئاً من الاختلاف عند مالك حداد، يصور وقوع الحادثة باغتيال امراة مسلمة ـ زوجة خالد بن طوبال التي انقطعت أخبارها عن زوجها مدة طويلة، كانت مع ضابط مظلي فرنسي في شوارع قسنطينة، وهي على علاقة صداقة أيضامع زوجة هذا الضابط، لقيامها عدة مرات بجولة في ضواحي البلاد، وعندما علم زوجها خالد بن طوبال بهذا الخبر من الجرائد، قفز بين عارضي الخط الحديدي منتحراً.

أما عند أحلام مستغانمي علم خالد بن طوبال بالخبر عن طريق حبيبته، التي اشترت له هذه الجريدة التي نشر فيها خبر هروب زوجته رويدة مع الضابط الفرنسي وافتضاح أمرها بعد حادثة القطار وموتها.أما عندما نقف على الصورة الأصلية لشخصية: خالد بن طوبال كما وردت في: *ليس في رصيف الأزهار من يجيب*، هل هناك سمات مشتركة بين الروايتن في المظهر الفيزيولوجي؟

أما عند الراوية:" ***جلس قبالتي.ها هوذا إذن. كان يرتدي همّ العمر بأناقة. كان وسيماً، تلك الوسامة القسنطينيّة المهرّبة منذ قرون في جينات الأندلسيّين، بحاجبين سميكن بعض الشيء، وشعر على رماديته مازال يطغى عليه السواد، وابتسامة أدركتُ بعدها أنّ نصفها تهكّم صامت، ترك آثاره على غمازة كأخدود نحتها الزمن على الجانب الأيمن من فمه.وكانت له عينانطاعنتان في الإغراء، ونظرة منهكة، لرجل أحبّته النساء، لفرط ازدرائه للحياة.كم عمره؟ لايهمّ.مسرع به الخريف، وينتظره صقيع الشتاء.إنّه منتصف اليأس الجميل. منتصف الموت الأوّل، وهو لهذا يبتسم. يبدو في أوج جاذبيته***" (*عابرسرير*، ص١٠٦).

كما نلاحظ أنّ الراوية لم تلتزم باسم واحد للشخصية، بالرغم من أنّها استلهمته كاملا من عند مالك بن حداد، بل جعلتْ لهذا الاسم امتدادات عبر هذه *الثلاثية*، حيث نرى في *ذاكرة الجسد* ورد الاسم على هذا النحو: ***"- أتدري خالد.. إنّ من حسن حظّك أنّكَ لم تزر قسنطينة منذ عدّة سنوات.. وإلّا لما رسمت من وحيها أشياء جميلة كهذه. يوم تريد أنْ تشفى منها عليك أنْ تزورها فقط.. ستكفّ عن الحلم!"*** (*ذاكرة الجسد، ص٢١٠*).

كما نرى لم تلتزم الراوية بذكر اسم خالد بن طوبال كاملاً في *ذاكرة الجسد*، بل تركتْ وراء الاسم بعض النقاط . وهو ما يوحي لي: بأنّ الراوية تحاول أنْ تجلّي صورة البطل خالد وهو مرتبط بتاريخ الجزائر أثناء حركة الثورة، وكأنّ الراوية تعود بنا إلى تاريخ كلمة السر وهي خالد إبان ثورة نوفمبر عام ١٩٤٥، وإرتباطها باسم عقبة بن نافع وتاريخه النضالي في تحرير الشعوب. وبهذا تربط الرواية نضال الشعب الجزائر بالتاريخ

العربي. غير أنّ الراوية توسع في مدلول اسم الشخصية، ليستوعب انكسارات الثورة وموت الحلم والذي تمثلته بلوحة رسم قسنطينة التي طالما حملت لواء الثورة وقدمت أول عربون من قوافل الشهداء، بدء من الانتفاضة الكبرى عام ١٩٤٥ إلى الاستقلال عام ١٩٦٢، وجاء السرد حزيناً، يجسد تحولات الأحداث ومحو الذاكرة، لكي تكف الشخصية الجزائرية عن الأحلام وتواجه الواقع المرير بعد الثورة والذي تحوّل فيه الحلم إلى كابوس.

قد يحوي اسم خالد دلالات أخرى، كما نرى في هذه الشواهد ."

ـ ماذا ستهدينـي ؟

قلتُ: ـ إنّـها مفاجأة.. لنفترض أنّـني سأهبكِ غزالة

قلتِ عنوان كتاب!

قلتُ: ـ أدري..لأنّني سأهبكِ كتاباً.عندما نحبّ فتاة نهبها اسمنا.عندما نحبّ امرأة نهبها طفلاً. وعندما نحبّ كاتبة .. نهبها كتاباً. سأكتب من أجلكِ روايةً. أحسّستُ في صوتكِ بشيء من الفرح والارتباك..شيء من الدهشة والحزن الغامض.ثمّ قلتِ فجأة بنبرة عشقيّة لم أعهدها منكَ:

ـ خالد.. أحبكِ.. أتدري هذا؟

وانقطع صوتكِ فجأة، ليتوحّد بصمتي وحزني، ونبقى هكذا لحظات دون كلام. قبل أنْ تضيفي بشيء من الرجاء:

ـ خالد.. قل شيئاً..لماذا لاتجيب؟

قلتُ لكِ بشيء من السخرية المرّة:

ـ لأنّ رصيف الأزهار لم يعد يجيب..

ـ هل تعني أنّكَ لم تعدّ تحبني..

أجبتكَ بصوت غائب: ـ أنا لا أعني شيئاً بالتحديد.. إنّه عنوان لرواية أخرى للكاتب نفسه!" (ذاكرة الجسد، ص٣٧٥ ومايليها).

ويحيلنا الحوار هنا إلى اتساع، لمدلول شخصية خالد من خلال عروج الراوية على نصين أدبيين آخريين لمالك بن حداد وهو*ليس في رصيف الأزهارلم يعد يجيب*، و*سأهبك غزالة*، حيث ذكر اسم خالد بن طوبال كاملاً، وكأنّ الراوية تريد من المتلقي العودة إلى تاريخ الأدب الجزائري والوقوف على مضامينه الدلالية . غير أنها جعلت من شخصية خالد صامتة وحزنية إلى حد الموات الحيّ، وتحولت إلى شخصية حزينة، تتماشى ومضمون شخصية مالك بن حداد : ليس في رصيف بعد أنّ فقد علاقته بالحب والحبيبة والوطن. بينما في *سأهبك غزالة*[٦]. تحاول الراوية أنْ تستعيض بمضمون رواية: *سأهبك غزالة* التي تدور حول قصة حب بين يمينة ومولاي، وطلب يمينة من مولاي أنْ يحضر لها غزالة حيّة، غير أنّه لم يتمكن من تحقيق هذا، وهو في الصحراء بعدما أخفق في المبتغى تتراءى له صورة الحبيبة وهي حامل تعلن له عن قرب ميلاد طفل وستطلق عليه اسم مولاي، وعبرت له بكلمات تعني الأمل والانتظار، بينما هو عجز عن تحقيق حلمها، ومن هنا تحاول الراوية استخدام مضمون هذه الرواية بما يتناسب مع شخصية خالد بعد أنْ عجز عن تحقيق حلم الحب تحول إلى كاتب كئيب، يوثق في كتابه موت علاقته مع الحبية بعدما تزوجت من شخص آخر.

وبهذا الخصوص تعبر أحلام مستغانمي عن عمق احترامها، لشخص مالك حداد في هذا المقال لبعد السلام يخلف: *أحلام مستغانمي الحلم، أو حين تطلع أغنية من أحراش الكلمات*، " نحن نكرم من خلال مالك حداد الآخرين، فكم كان مهمشاً هذا المبدع، قلتُ بأنّني

سأهبه غزالة وحققتُ هذا . الالتزام بعد عشر سنوات، فأنا أحببتُ مالك حداد وكلانا انطلق من الشعر لينتهي إلى الرواية. وأضاف الكاتب، عندما سئلت: أحلام مستغانمي، عام ٢٠٠١ في قصر الثقافة في قسنطينة في حفل توزيع جائزة مالك حداد لماذا تصرين على أنْ تكون الجائزة بهذا الاسم؟ رددتْ: لأنّ هذا الرجل معجزة.إنّه كاتب عظيم بالرغم من أنّه لم يكتب الشيء الكثير.ويكفي أنّه وهبنا غزالة إشارة إلى روايته *سأهبك غزالة*(٧).

وتتحول شخصية خالد بن طوبال في الجزء الثاني من *ثلاثية* أحلام مستغانمي من **كائن حبري** أو شخصية ورقية في الرواية إلى شخص من لحم ودم، بل أيضا بوصفه شخصاً متخفياً، فهو كاتب باسم مستعار تقابله الراوية، وهنا تتجاوز أحلام مستغانمي كل الدلالات التاريخية، لدى المؤرخين عن شخصية خالد، وتحوله إلى شخصية مزدوجة مكتوبة عنه وكاتب في آن واحد، ليتسع الحقل الدلالي إلى هذه الشخصية بوصفه فاعلاً في التاريخ ومفعولاً به وضميراً مستتراً في آن، وهذا التركيب الثلاثي لشخصية خالد بن طوبال يبن عن مدى إشكالية الهوية التي تعانيها الشخصية الجزائرية مثمتلة في تعددية،وتتعدد ثنائية اسمه من حرب التحرير وامتدادها إلى حرب الاستنزاف في الثمانينيات، متخفياً تحت اسم مستعار، ليمارس الكتابة في الصحافة خوفاً من اغتيالات الإرهاب. ***" وبرغم كلّ هذا، يبقى الأمر مربكاً. فأنا لا أريد أنْ أصدّق أنّ ذلك الرّجل الذي ما انفكّ منذ ستة أشهر يقلب حياتي رأساً على عقب، هو خالد بن طوبال، ذلك الكائن الحبريّ الذي خلقتُه منذ عدّة سنوات. ثمّ نسيته داخل كتاب.ألقيتُ به إلى جوف مطبعة كما نلقي بجثّة إلى البحر، بعد أن ثقلها بالصخور، حتى لاتعود إلى السطح، ولكنّه عاد. هذا الكائن أعرفه عن ظهر قلب. فقد عشتُ معه أربع مائة صفحة وما يقارب الأربع سنوات. ثمّ افترقنا.انتهى عمره مع آخر سطر."*** (*فوضى الحواس*، ص ٢٧٤).

" عندما قرأتُ كتابكِ منذ ثلاث سنوات، تساءلتُ كيف يمكن لقصتي أنْ تبدأ حيثُ انتهتْ قصة خالد، في السنة والأحداث نفسها ؟ تراني فقدتْ ذراعي فقط لأمنح الحياة ترف مطابقتها لرواية، أم لأمنح الأدب زهو مواصلة قصّة في الحياة ؟ أدركتُ الجواب عندما التقينا. لقد تواطأ الأدب والحياة، ليهديا قصّة الحبّ التّي هي من الجمال بحيث لم يحلم بها قاريء وكاتبة قبل اليوم.أنتِ نفسكِ كروائية تجاوزتكِ قصتنا لأنّها أغرب من أنْ تجرؤي على تصوّرها في كتاب" (*فوضى الحواس*، ص ٣٢٤ *ومايليها*).

ونلاحظ إنزياح الاسم وراء كائن حبري لا اسم له سواء ضمير هو اسم معرفة، ولكنه يظل مجهول الملامح والصفات . جاء في صورة التكرار والتناوب مع البطل الرئيس خالد بن طوبال، في الجزء الأول *ذاكرة الجسد*، وامتداده عبر كائن حبري آخر، والذي استنسخ معالم شخصيته، تحت معطف سميك وبضمير (هو – خالد بن طوبال)، في الجزء الثاني: *فوضى الحواس*.

"- ما اسمك؟ هل صعب إلى هذا الحدّ أنْ تبوح لي باسمكَ؟
ردّ ضاحكاً:- لا .. ولكن أيّ الاسمين يعنيكِ؟
... يجيب بنبرة عادية: - اسمي خالد بن طوبال.
أردّد مذهولة: - خالد بن طوبال ؟ ولكن..
يقاطعني:- أدري... أنّه اسم بطل في روايتك.. أعرف هذا ولكنّه أيضاً اسمي..
أجلس على طرف الأريكة. أتفرّج على رجل أتعرّف إليه. أستعيد آخر، عرفته يوماً في كتاب سابق. كان أيضاً رساماً من قسنطينة. رجل أعرف كلّ شيء عنه، كما لو كان أنا. ولم تفصلني عنه سوى الرّجولة وجسد شوهت الحرب ذراعه اليسرى. في لحظة ما أشعر أنّني أقترب من الحقيقة، ولا يفصلني عنها سوى سؤال واحد. "هل خالد بن طوبال هو اسمه الأوّل أم اسمه الثاني؟". الجواب عن هذا السؤال سيكون مخيفاً وحاسماً...

أسأله: *- **هل هذا هو الاسم الذي يناديك به أصدقاؤك وزملاؤك في الشّغل؟***

يردّ: *- **طبعاً.. وهو أيضاً الاسم الذي أوقع به مقالاتي...أنتبه فجأة لذراعه اليسرى. التي تبدو مصابة بشلل يمنعها من الحركة، بينما تظهر أعلاها بعض التشويهات، وكأنّ عملية جراحية أجريت لها في موضعين أو ثلاثة دون أيّة مراعاة جمالية. تنتابني قشعريرة، وحالة من الذّعر، ليس مصدرها ما أرى. وإنّما خوفي من أنْ أكون، قد بدأت أجنّ، لم أعد أعرف الفاصل بين الكتابة والحياة. ... أو كأنّني حلمت يوماً بأنّ ما يحدث لي سيحدث. وها هو ذا يحدث فعلاً. وإذا بي أمام رجل خلقته وشوهته بنفسي. "*** *(فوضى الحواس، ص ٢٦٥ ومايليها).*

والمدهش أنّ شخصية خالد بن طوبال ليستْ ثلاثية، بل رباعية الأبعاد فهو **صاحب المعطف**، وهذا يعني أن أحلام مستغانمي ركبت شخصية في قصتها المتخيلة كل: من خالد مفجر الثورة بوصفه كلمة السر، وخالد الذي يخفي اسمه في زمن خوفاً من الجماعات الارهابية وخالد اليأس الذي ينتمي إلى عائلة بن طوبال النضالية والي الشخصية المجهولة التي حملت كناية صاحب المعطف والتي ذكرت آنفا في الوثائق الخمسة التي عرضناها في البداية.أحلام مستغانمي إذ تجاوزت التاريخ بإعادة تركيب عناصره وإشباعها بالخيال الفني الذي مما أرتفع بشخصية خالد بن طوبال إلى مستوى الرمز الأدبي إلى الشخصية الجزائرية، ورمز تتسع دلالاته، ويبن عن الوجه الخفي للتاريخ في تعدد مناحيه، فالثورة حياة وبتر والمناضل حيّ وميت، والانتصار على الاستعمار تحقق وامتد في صور أخرى، وعثور الجزائريين على هويتهم، كان حلماً وانقضى، ومازالت أحلام مستغانمي تحاول الإمساك به أو الكشف عن معوقاته الجذرية، في مآسي الثورة ذاتها وما تلاها من أحداث، مثبطة للهمم ومشعلة لها في آن، وهذا ما لم يستطع أنْ يبينه السرد التاريخي ووثائقه. وإنّما يكشفه المجاز الأدبي وخيال الخصب.

في *عابرسرير* بما أنّه الجزء الثالث المتمم *للثلاثية*، فكان لابد للراوية أنْ تجلي الحقائق للمتلقي، فلذا، تضعه أمام حقيقة الأسماء وظهورها عبر سرد الأحداث، بدأ من خالد بن طوبال بطل *ذاكرة الجسد* وهو يعاني الوهن والمرض، لم يعد له دور إيجابي واقع وخيال، فلذا، انزاح على مسرح الأحداث . وتأتي حقيقة الموت لتكشف الاسم المستعار الذي كان خالد بن طوبال متخفياً وراءه وهو اسم زيان. ويتولى البطولة خالد بن طوبال في *عابرسرير*، الصحفي المعطوب في مظاهرات ١٩٨٨ أكتوبر، خالد بن طوبال. وتحديد هذا الزمن إشارة إلى بدء زمن التغيير في الواقع الجزائري ودور الشخصيات وتفاعلاتهاعبر المستجدات، ويعزز سرد خالد بن طوبال الثاني، الأنموذج المرجعي لاسم خالد بن طوبال الأول، وكأنّها شخصية متحقق وجودها في التاريخ، ***" إنْ شئت الحقيقة، خالد بن طوبال ليس أنا، إنّما زيّان. ولكن تلك قصة أخرى. في الواقع كان هذا اسمه في تلك الرواية، بينما أصبح هذا اسمي في الحياة. ففي الرواية أيضاً نحتاج إلى استعارة أسماء ليستْ لنا، ولذا أثناء انتقالنا بين الاثنين كثيراً ما لانعود ندري مَن نكون.إنّها لعبة الأقنعة في كرنفال الحياة"*** *(عابرسرير، ص٢٨٠).*

ومع إضافة اسم زيان إلى خالد بن طوبال في الجزء الثالث *عابرسرير*، تتضاعف الأسماء والأقنعة التي تسربلت بها شخصية البطل خالد بن طوبال، ولكننا في نفس اللحظة نرتد مع هذا الاسم المستجد في الجزء الثالث والأخير *لثلاثية* أحلام مستغانمي إلى اللحظة الأولى المفجرة للثورة الجزائرية على مستوى القبيلة فقد كان بوزيان هو قائد الثورة الجهوية غرب بسكرة في عام١٨٤٨، وقضى عليها عام ١٨٤٩، ولم تستطع فرنسا إخماد

هذه الثورة إلا بعد قتال شديد وحتى بعد إعدامها لزعيمها أبوزيان . فهل أرادت الراوية بذلك أنْ تفجر ثورة البحث عن الهوية والكرامة من جديد؟

كما في *عابرسرير* ورد الاسم على النحو التالي:" ***فكّرت وأنا أتأملها، أنّ ثمّة جسوراً نعبرها، وأخرى تعبرنا، كتلك المدن التي نسكنها والأخرى التّي تسكننا، حسب قول خالد بن طوبال في " ذاكرة الجسد".لا أدري كيف أوصلني التفكير إلى ذلك الكائن الحبري الذي انتحلت اسمه صحافياً لعدة سنوات.وكنت أوقع مقالاتي محتمياً به، من رصاص القتلة المتربّص بكلّ قلم، واثقاً بأنّ هذا الرجل لم يوجد يوماً في الحياة، كما زعمت مؤلفة تلك الرواية "*** (*عابرسرير، ص٥٤ ومايليها*).

ويتجلى لنا أيضاً في هذا الجزء الثالث من *الثلاثية* حقيقة خالد بن طوبال الصحفي، الذي احتمى بهذا الاسم ظناً منه أنه لا وجود له إلا في خياله، غير أنّ الحقيقة تظهر على هذا النحو: أن هذا الاسم موجود في رواية الراوّية، وبدا الأمر حينها وكأنّنا ***"واقفين كنّا أمام أسطورة رجل عاديّ، بأحلام ذات أقدار ملحمية. رجل يُدعى خالد بن طوبال.فمنذ اجتمعنا حوله استعاد اسمه الأوّل، وبهذا الاسم يعود إلى قسنطينة.الموت غيّر اسمه وكشف أسماءنا.***

أذكر يوم سألني بتهكم ذكيّ: ـ خالد ..أما زلت خالد؟ (*عابر سرير، ص ٢٨٧****).***

وتمتد صورته باسم زيان هو: الوجه الحقيقي لبطل: خالدبن طوبال، ***"قسنطينة .. آالميمة. جيتك بيه.صغيرك العائد من برّاد المنافي، مرتعداً كعصفور ضمّيه. كان عليه أنْ يقضي عمراً من أجل بلوغ صدرك.وليدك المغبون، لفرط ما هو لك ما عاد هو، لفرط ما كان خالد ما عاد زيان، لفرط ما أصبح زيّان ما وجد له مستقراً غير قبر أخيه "***(*عابرسرير، ص٣١٢*).

كما تأتي الراوية أيضاً باسم صاحب المعطف الحاج الطاهر ***" وهو شخصية كوميدية شعبية توفيّ بالسبعينّيات، اشتهر على طريقة كولمبو بمعطفه المضاد و بدور رجل التحريّ المختص في قضايا "السريكات" "الكتيلات "أيّ السرقات..الجرائم صُنعتْ شهرته من لهجته المميزة في تحويل القاف"كافا"على الطريقة أهل مدينة جيجل."*** (*عابرسرير، ص١٢٧*). لينضم إلى قائمة الأسماء والأقنعة، وبها جميعاً تتضخم شحصية البطل لتصبح أشبه بشخصية اعتبارية ضامة، لجموع الشعب الجزائري في كفاحه ونكبته، استشهاده وخلوده، ثورته وبتره وإعدامه، غيابه وحضوره الطاغي في الكتاب والرواية والمقال في التاريخ والحلم الذي له ألف وجه.

ولا تخلو هذه الشخصية الاعتبارية أيضاً من قناع فني أهم، وهو شخصية صاحب المعطف، فقد أطلق على خالد بن طوبال أيضاً كنية: صاحب المعطف، وقد ذكرنا ملامح هذه الشخصية من قبل كما وردت في كتب التاريخ وهي كنية الحاج عبد الرحمن ـ صاحب الشهرة، المفتش الطاهر، والذي تميز بطريقته الساخرة في نقد الأوضاع الاجتماعية والسياسية في الجزائر، سخرية تحمل في طياتها تحفيزاً لبناء الإنسان القادر على استرداد سلطة التاريخ، وتصحيح مساره بين الأجيال الجزائرية. خالد بن طوبال هذه الشخصية الجمعية الضامة لكافة الوجوه التاريخية المؤثرة في تاريخ الجزائر، تستجمع مقدراتهم وتشي بثورة تجمعهم آتية، رغماً عن موت البطل خالد بن طوبال الأول المبتور اليد المصاب في الحرب، وحياة خالد بن طوبال الثاني الصحفي. الذي يلاحق الإرهابيين ويقاتلهم برماح أقلامه.

<u>جـــ أسئلة الهوية بين الواقع التاريخي والمتخيل السردي:</u>

استطاعت الراوية أنْ تركب الشخصيات السابقة بعضها ببعض عبر تراكيب مختلفة، من رمز وكلمة سر أثناء انطلاق شرارة الثورة إلى اسم عريض لعائلة قسنطنية

ذات تاريخ مجيد إلى ضمير هو مختفي باسم خالد بن طوبال إلى صاحب المعطف، إيحاء، لفنان جزائري صاحب تاريخ عريق في الساحة الفنية الجزائرية، ومن هنا أتسعت هوية الشخصية، وأصبحت ذات دلالات تشع بالعديد من المعاني حسب ماتراه الدكتورة: منى طلبة، ويرتكزان على علاقة الوعي بالتاريخ والهوية.

ويرى ريكور أنّ التعريف على الهوية كان وليد السرد في القصص الخيالية التقليدية والأساطير، إذ إنّ السرد في القصص الخيالية التقليدية والأساطير، إذ إنّ السرد في هذه النصوص كان يؤلف الخواص الدائمة لشخصية ماتبنى ديناميتها من خلال الحبكة، فهي ذات موضوعة بين برنامجين سرديين هما المطابقة والأخرية. وأنّ الذات في تعريفها على تلازم هذين البرنامجين وتوترها بينهما تتعرف على ذاتها وهويتها وإمكاناتها...وينتقل ريكور من الهوية الفردية إلى الهوية الجماعية" [٨] .

وعندما نقف على هذه الشخصية عبر البرنامج السردي، على ما تريد أنْ تصل إليه، وكيفية معانقته في السرد وماتحقق وما لم توفق الشخصية في الحصول عليه . نجد الراوية تربط بين حياة خالد بن طوبال الشخصية والوقائع الجزائرية إبّان حرب التحرير، وتكشف أنّ وجه مكافحة الاستعمار الفرنسي، هو وجه آخر للموت، موت الأم وغياب الأب ووحدة الأخ وفقدان الوطن، ممّا دفعه إلى للالتحاق بجبهة التحرير، وكأنّ الشخصية تؤصل هنا عبر تحولاتها السردية، لبداية حركة الحراك الشعبي للثورة الجزائرية، وانضمامه إلى مجاهدي الثورة. بعدما كثفت جبهة التحرير النداء تجاه الطلبة في المدارس والجامعات، للإضراب عن الدراسة، تمهيداً للالتحاق بصفوف جبهات التحرير[٩]. ***" في الحروب، ليس الذين يموتون هم التعساء دائما.إنّ الأتعس هم أولئك الذين يتركونهم خلفهم ثكالى، يتامى، ومعطوبي أحلام.أكتشفت هذه الحقيقة باكراً، شهيداً بعد آخر، وقصّة بعد أخرى.. وأكشفت في المناسبة نفسها، أنّني ربّما كنتُ الوحيد الذي لم يترك خلفه سوى قبر طري لأم ماتت قهراً، وأخ فريد يصغرني بسنوات، وأب مشغول بمطالب عروسه الصغيرة ...أكان التحاقي بالجبهة آنذاك محاولة غير معلنة للبحث عن موت أجمل خارج تلك الأحاسيس المرضيّة التّي كانت تملأني تدريجياً حقداً على كلّ شيء؟ كانت الثورة تدخل عامها الثاني، ويتمي يدخل شهره الثالث، ولم أعد أذكر الآن بالتحديد، في أية لحظة بالذات أخذ الوطن ملامح الأمومة، وأعطاني ما لم أتوقعه من الحنان الغامض، والانتماء المتطرّف له"*** *(ذاكرة الجسد، ص٢٦ ومايليها).*

كما تتحول شخصية خالد إلى مؤرخ، يحاول الإمساك بتاريخ الثورة، وتجلي التجربة وماتعرضت له من معاناة وتقييده بالحاضر عبر وثائق سجن الكديا، ***"وكان سجن (الكديا) وقتها، ككلّ سجون الشرق الجزائري يعاني فجأة من فائض، رجولة، إثر مظاهرات ٨ماي ١٩٤٥ التّي قدّمت فيها قسنطينة وسطيف وضواحيهما أوّل عربون للثورة، متمثلا في دفعة أولى من عدّة آلاف من الشهداء سقطوا في مظاهرة واحدة، وعشرات الآلاف من المساجين الذين ضاقت بهم الزنزانات يجاوز أحياناً عدد نزلائها العشرين معتقلاً اليوم ..عندما أذكر تلك التجربة، تبدو لي لكثافتها ودهشتها، وكأنّها أطول ممّا كانت رغم [١٠]. أنّها لم تدم بالنسبة لي سوى ستة أشهر فقط.قضيتها هناك قبل أنْ يطلق سراحي أنا واثنين آخرين لصغر سننا ولأنّه كان هناك من يهمّهم أمرهم، أكثر منّا "*** *(ذاكرةالجسد، ص٣٠ ومايليها).*

يعرض المقطع السردي المكتظ بالأحداث التاريخية، لثقافةخالد، وهو يدرس الأدب الفرنسي بالثانوية، وأيضاً يدرس الفلسفة، ويأتي طرح الراوّية، لبعض قضاياالتعليم عبر

إشارات متنوعة لكتب أدبية وفلسفية كانت سائدةفي زمن الاستعمار، ***"هكذا عدت إلى قسنطينة، بعدما أخلفتُ عاماً دراسياً، لأجد البرنامج نفسه هوكتب الفلسفة نفسها والأدب الفرنسي في انتظاري.."*** (*ذاكرة الجسد، ص٣١*).

وتتحول شخصية خالد إلى مضمون الغربة الجزائرية وصراع هوية، نتيجة لهيمنة اللغة والثقافة الفرنسية في المجتمع الجزائري ونبذ **اللغة العربية**[١١] وفرض طمس الهوية الجزائرية بين أوساط الطلبة الجزائريين، سعياً من الاستعمار لإدماجهم في ثقافته؛ والسيطرة على عقولهم وأفكارهم. إلا إنّ هذا الطمس أنتج داخل الشخصية صراعاً وجذوة الروح المتمردة، ضد الاحتلال. ***"وكان ذلك شرفهم، أولئك الذين راهن البعض " بعض من الناس " على خيانتهم، فقط لأنّهم اختاروا الثانويّات والثقافة الفرنسية، في مدينة لا يمكن لأحد فيها أن يتجاهل سلطة اللّغة العربيّة، وهيبتها في القلوب والذاكرة. فهل عجب أنْ يكون من بين الذين سجنوا وعذّبوا بعد تلك المظاهرات، الكثير منهم، هم الذين كانوا بحكم ثقافتهم الغربية يتمتعون بوعي سياسي مبكّر، وبفائض وطنيّة..وفائض أحلام...والذين أدركوا، والحرب العالمية تنتهي لصالح فرنسا والحلفاء، أنَ فرنسا استعملت الجزائريين، ليخوضوا حرباً لم تكن حربهم، وأنّهم دفعوا آلاف الموتى في المعارك لاتعنيهم، ليعودوا بعد ذلك إلى عبوديتهم"*** (*ذاكرة الجسد، ص٣١ومايليها*).

وتدمج الراوية في السرد التالي تجربة فرنسة المدارس الجزائرية، التي كان يدرس فيها خالد، وانخراط الجزائري في صفوف الحرب العالمية الثانية، عندما طلب شارول ديغول، ch arles dighul من الجزائريين مساعدة فرنسا في حربها ضد الاحتلال الألماني، سمى بوعد (برازفيل)، بالكونغو عام ١٩٤٤[١٢]، غير أنّ مفاجأة الجزائريين بعد نهاية الحرب العالمية، قابلتهم فرنسا بالقتل أثناء مظاهرات ٨ من ماي ١٩٤٥والسجن، ممّا زاد عبء الاستعمار ثقافياً وجسدياً، وتحاول الشخصية الجزائرية، أنْ تستنهض من عبوديةا لاستعمار الفرنسي، لتصبح شخصية فاعلة ومؤثرة، تُعلن شرارة انتفاضة أول نوفمبر عام ١٩٤٥ ومنهم: العربي بن مهيدي، وأحمد بن بلة، ومحمد بوضياف وغيرهم، وفي العام التي وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، وكذلك سوت الحرب العالمية الثانية بين أبناء المستعمرات وأبناء الاستعمارجعلتهم في خندق واحد، ممّا عزز لدى الإفريقيّين والآسيويّين روح الحرية والاستقلال[١٣].

كما ترصد الشخصية امتداد التراث الجزائري، ودوره في بناء النشء إبّان احتلال البلاد. ***"ما كان أجمل كلامك يومها! ...كان يأتي مع الصلوات، مع التراتيل، مع صوت(المؤدِّب) في كتاتيب قسنطينة القديمة.فأعود إلى الحصير نفسه أجلس عليه بالارتباك الطفولي نفسه، أردّد مع أولاد آخرين تلك الآيات التي لم نكن نفهمها بعد، ولكنّنا كنّا ننسخها على ذات اللوح ونحفظها كيف ما كان، خوفاً من" الفالاقة". وتلك العصا الطويلة التي كانت تتربص بأقدامنا لتدميها عند أوّل غلطة"*** (*ذاكرة الجسد، ص٢٤٠*).

وقد يكون التفات الشخصية إلى جذور اللهجة المحلية من خلال الحكي اليومي بلفظ (الفالاقة)[١٤] صادرة من طبقة بسيطة أو كادحة – أبناء قسنطينة القديمة –***" تلك العصا الطويلة التي كانت تتربصّ بأقدامنا لتدميها عند أول غلطة"*** (*ذاكرة الجسد، ص٢٤٠*)، هذا مؤشر على الثقافة العربية القديمة للراوي وأنتجها ما يرمز بالكتاتيب [١٥]، حيث كان التعليم إبّان الاستعمار الفرنسي في بعض المساجد والزوايا، بعداختفاء المؤسسات التعليمية واضطهاد اللغة الوطنية، والتي كانت حاضنة التربية القديمة للنشء في كل القرى العربية، وتعلم بعض الأحاديث النبويّة ومعرفة الخط والكتابة. التّي فيما بعد أدتْ دوراً مهماً في الوعي الثقافي التراثي من أجل تثبيت الهوية الوطنية في زمن المدّ الاستعماري التي بدأ منذ مطلع القرن التاسع عشر.

تظهر شخصية خالد إنسان شكاك حائر ما بين الإيمان الشعبي الغريزي، والمتسامح مع النفس والآخرين والجحود."***كان يأتي ليصالحني مع الله، أنا الذي لم أصم من سنين. كان يصالحني مع الوطن، ويحرّضني ضد هذه المدينة التي تسرق منّي كلّ يوم مساحة صغيرة من الإيمان..والذاكرة. كنت يومها المرأة التي أيقظت ملائكتي وشياطيني في الوقت نفسه.ثم راحت تتفرّج علىَ بعدها حوَلتني إلى ساحة يتصارع الخير والشرّ فيها..دون رحمة !"*** *(ذاكرة الجسد، ٢٤٠ ومايليها).*

الحقيقة أنّنا نلمس نتائج هذا الصراع على الشخصية الرئيسة خالد، فهو يعاني نوعاً ما من الصراع، إنْ لم يكشف عنه إلا من خلال الوصف والحوار والمناجاة، فقد أصيب خالد بنوع من الانفصام النفسي والازدواجية الحضارية والثقافية على نحو ما يصوّر:***" لقد أصبحت في بضعة أيّام رجلاً مزدوجاً كهذه المدينة، وبدأت أعي أنّ ليس في هذا العالم المسكون بالأضداد من مدن بريئة. ومدن فاجرة. هنالك مدن منافقة.. وأخرى أقلّ نفاقاً فقط.. وليس هنالك من مدن بوجهٍ واحد..و حرفة واحدة. وقسنطينة أكثر المدن وجوهاً..وتناقضاً.هاهي مدينة تستدرجك إلى الخطيئة. ثمّ تردعك بالقوة نفسها التّي تستدرجك بها"*** *(ذاكرة الجسد . ص ٣١٥).*

وتدلل ذاكرة البتر على التاريخ المؤلم، لشخصية خالد، ويعيد صياغته، وكأنّه مرآة عاكسة لكلّ ما يدور داخل الوطن من عناصر الثبات والتحول والجمال والعاطفة الإنسانية ***." يا امرأة على شاكلة وطن ..امنحيني فرصة بطولة أخرى.دعيني بيد واحدة أغيّر مقاييسك للرجولة ومقاييسك للحبّ..ومقاييسك للّذة !"*** *(ذاكرة الجسد، ص١٨٤).*

يرتبط النداء بالاستجداء للمرأة ـ أحلام رمز (الحبّ)، والذي قرنه بمعارك بطولية أخرى، هي دعوات إلى تمكين البطل من أنْ يبدأ جولة أخرى في الحياة الإيجابية؛ ليستمر في الوجود مع هذه المرأة التي أحبّها بعد أن فقد إحدى ذراعيه، والبدء من جديد، هو الحكي نفسه. غير أنّ البياض الذي يتخلل النصّ، يوضح خلل علاقة البطل بهذه المرأة /الوطن،فالهوة عميقة. ***" كم من الأيدي تتالتْ عليكِ...وتركتْ أظافرها على عنقكِ، وإمضاءها أسفل جرحك. وأحبّتكِ خطأ..وآلمتكِ خطأ.أحبك السرّاق والقراصنة..وقاطعو الطرق. ولم تقطع أيديهم.ووحدهم الذين أحبوكِ دون مقابل، أصبحوا ذوي عاهات. لهم كلّ شيء، ولا شئ غيرك لي .أنتِ لي الليلة ككلّ ليلة.فمَن سيأخذ طيفك منّيَ؟ مَن سيصادر جسدك من سريري؟ مَن سيسرق عطرك من حواسي؟ ومَن سيمنعني مَن استعادتك بيدي الثانية؟"*** *(ذاكرة الجسد، ص١٨٤).*

وتحولت الشخصية بعد العاهة إلى شاهد عصر، يروي وقائع أبعاد الاستعمار على الشعوب العربية، كما يكشف عن بداية الفشل، في التحرر واللجوء إلى طرق أخرى لتحقيق الذات، ونلمس تكراراً لمفردة (اليد)، والتي توحي أنّ ثمّة صراعاً وتنافساً بين أيدي خيّرة وأخرى شريرة، واحدة تريد أن تمحو تاريخ الجزائر، وأخرى تريد أنْ تكتبه. ***" تلك المعركة الضارية التي دارتْ على مشارف "باتنة" لتقلب يوماً كلّ شيء..فقد فقدنا فيها ستّة مجاهدين، وكنت فيها أنا من عداد الجرحى بعدما اخترقت ذراعي اليسرى رصاصتان، وإذا بمجرى حياتي يتغير فجأة، وأنا أجد نفسي من ضمن الجرحى الذين يجب أن ينقلوا على وجه السرعة إلى الحدود التونسية للعلاج. ولم يكن العلاج بالنسبة لي..سوى بتر ذراعي اليسرى، لاستحالة استئصال الرصاصتين ولم يكن هناك من مجال للنقاش أو التردد.كان النقاش فقط، حول الطرق الآمنة التي يمكن أنْ نسلكها حتّى تونس، حيث كانت القواعد الخلفية للمجاهدين"*** *(ذاكرة الجسد، ص٣٤، ومايليها).*

ويبقي السؤال: كيف استلهمت الراوية من بتر ذراع خالد بعداً فنياً؟

للإجابةعن هذا السؤال علينا أنْ نعرج على شخصية الطبيب اليوغوسلافي كابوتشكي، kabwtshky، (*ذاكرة الجسد، ص٦٤*)، والتي ترمز من قريب أو بعيد إلى دور الكتلة الشرقية ومساندتها لحركة التحرر في الدول النامية في فترة الستينيات وانضمامها إلى ـ كتلة عد م الانحياز[١٦] وأشهر زعمائها: الزعيم جمال عبد الناصر، والرئيس اليوغوسلافي، الماريشال تيتو، MarshallTito والريئس الأندونسيّ أحمد سوكانوا، والزعيم الهندي جواهر لاتهرو، How to write، وكان لهم الدور الفعال في مساندة بعض الدول في نيل الاستقلال والانضمام إلى الأمم المتحدة وكما حصل في الجزائر، وتبرز شخصية الطبيب اليوغوسلافي بثقلها المادي والمعنوي وقد رُسمت بنوع من البراعة الفنية البلاغية، ويتداخل الحلم باليقظة؛ ويصبح فعل (ارسم) تناصاً تاريخياً. يستدعي فعل (اقرأ)[١٧]؛ تتوالد حكاية أمة عربية أخرجت من ظلمات الجهل إلى نور الإسلام، وحكاية شعب يلتمس النجاة من براثن الاستعمار، وكذلك تلك رعشة الحمى التّي سرت في جسد خالد كناية عن التغيرات العنيفة، وعن الذعر الذي تعرض له أثناء تلك الغفوة:" ***نمتُ في تلك الليلة قلقاً، وربّما لم أنم. كان صوت ذلك الطبيب يحضرني بفرنسيّته المكسَرة ليوقظني "ارسم". كنت أستعيده داخل بدلته البيضاء، يودعني وهو يشدّ على يدي "ارسم". فتعبر قشعريرة غامضة جسدي و أنا أتذكّر في غفوتي أوّل سورة للقرآن. يوم نزل جبرائيل عليه السلام على محمد لأوّل مرّة فقال له "اقرأ" فسأله النبي مرتعداً من الرهبة.."ماذا اقرأ ؟ "فقال له جبريل " اقرأ باسم ربّك الذي خلق"، وراح يقرأ عليه أوّل سورة للقرآن. وعندما انتهى عاد النبي إلى زوجته وجسده يرتعد من هول ما سمع. وما كاد يراها حتى صاح "دثّريني..دثّريني..." .كنت ذلك المساء أشعر برجفة الحمّى الباردة. وبرعشة ربّما كان سببها توتّري النفسي يومها، وقلقي بعد ذلك اللقاء الذي كنت أعرف أنّه آخر لقاء لي مع الطبيب .وربّما أيضاً بسبب ذلك الغطاء الخفيف الذي كان غطائي الوحيد في أوج.الشتاء القارس، والذي لم يمنحني مستأجري البخيل غيره (ذاكرة الجسد، ص٦٢)***.

هنا يُفصح عن دور هذه الشخصية الأوروبيّة من الكتلة الشرقية الاشتراكية ودورها التاريخي والحضاري الذي قامت به هذه المجموعة – في مقدمتها (يوغوسلافيا) – في مساندة ثورات التحرر عامة وفي ثورة الجزائر خاصة. وهي لمحة فنية صادقة بقدر ما هي لمحة تاريخية صادقة أيضا. "***إذن ابدأ برسم أقرب شيء إلى نفسك..ارسم أحبّ شيء إليك...***".(*ذاكرة الجسد، ص٦١*). لقد تمكن خالد في أنْ يستعيض عن سلاح المقاومة سلاح الفن، فرسم لوحة ظلت عالقة بذاكرة تاريخ ثورة الجزائر لوحة (**حنين**) وهي تمثل جسر سيدي مسيد.رمزاً لثورة التحرير، ورسمه لهذه اللوحة في تونس، أرض احتضنت ثورة التحرير، وكأنّ الراوية تريد أنْ ترسم لوحة سردية فنية، لجذور تاريخ هذه الحركة الشعبية وعوامل انتصارها المتمثلة في الدول الشقيقة[١٨]، **"ها هي حنين لوحتي، وجوار تاريخ رسمها (تونس٥٧) توقيعي الذي وضعته لأول مرّة أسفل لوحة. تماماً كما وضعته أسفل اسمك، وتاريخ ميلادك الجديد، ذات خريف من سنة ١٩٥٧، وأنا أسجلك في دار البلدية لأوّل مرة" (***ذاكرة الجسد، ص٦٤***)**.تربط لوحة حنين (٥٧ـ تونس)، بين أعز ما كان يمتلكه الفنان في ذاكرته من حنين للمرأة والأرض وهي ميلاد الإنسان والوطن، وهي حنين لجسور قسنطينة ـ جسر سيدي مسيّد.

ويأتي إقرار الراوية في كتابة رواية*ذاكرة الجسد*، بعد ربع قرن، غير أنّ الصحيح بدأت في كتابتها بعد خمسة عشر عام [١٩]، تطرح فيها أسئلة هوية زمن ما بعد التحرير، وتفتح الوعي السردي عن الغربة والعزلة التي عاصرها شرفاء الثورة بعد الاستقلال. "

اليوم بعد ربع قرن ..، أنتَ تخجل من ذراع بدلتك الفارغ الذي تخفيه بحياء في جيب سترتك، وكأنّكَ تخفي ذاكرتك الشخصية، وتعتذر عن ماضيك لكلّ من لا ماضي لهم.يدك الناقصة تزعجهم. تفسد على بعضهم راحتهم. تفقدهم شهيتهم. ليس هذا الزمن لك، إنّه زمن لما بعد الحرب.للبدلات الأنيقة والسيارات الفخمة..والبطون المنتفخة.ولذا كثيراً ما تخجل من ذراعك وهي ترافقك في الميترو وفي المطعم وفي المقهى وفي الطائرة وفي حفل تدعى إليه.تشعر أنّ الناس ينتظرون منك في مرة أنّ تسرد عليهم قصتكَ.كلّ العيون المستديرة دهشة، تسألك سؤالاً واحداً تخجل الشفاه من طرحه:" كيف حدث هذا ؟ ويحدث أنْ تحزن، وأنت تأخذ الميترو وتمسك بيدك الفريدة الذراع المعلقة للركاب. ثمّ تقرأ على بعض الكراسي تلك العبارة:" أماكن محجوزة لمعطوبي الحرب والحوامل..لا ليست هذه الأماكن لك.شيء من العزّة، من بقايا شهامة، تجعلك تفضّل البقاء واقفاً معلقاً بيد واحدة. إنّها أماكن محجوزة لمحاربين غيرك، حربهم لم تكن حربك، وجراحهم ربّما كانت على يدك.أمّا جراحك أنتَ..فغير معترف بها هنا.ها أنتَ أمام جدلية عجيبة." *(ذاكرة الجسد، ص٧٢ومايليها).*

وكأنّ أسطرة البتر تؤكد تغريبة الجزائري داخل وطنه، ومن هنا يُطرح السؤال: هل هذا الوضع المعيشي لأبطال الرواية نابعٌ من حياة الشعب الجزائري الذي عزله المستعمر مايزيد من١٣٠ عاماً عن الأمة العربية أم كان ذلك نتيجة تطور الإنسان المعاصر وتحولات الحياة التي فرضت هذه العزلة، كمناخ نفسي ذلك حسب ما ورد في فلسفة ألبير كامي AlbrtCamus "، في رواية *الغريب*(٢٠).

من هنا نرى شخصية خالد كيف: تأتي تارة ممزوجة بالتاريخ الواقعي، لحركة النضال الثوري في الجزائر، وتارة أخرى تمارس أعمالاً فنية وإدارية، وذلك بعد أنْ عجز عضوياً عن حمل السلاح، والاستمرار في معسكرات المقاومة الشعبية بالرغم من ذلك تظل صورة خالد- في الغالب الأعم - ثابتة تجاه مواقفه الثورية، ولم ينحرف عن مبادئه، بالرغم من كثرة الإغراءات التي وضعت في طريقه.***'ذات يوم، زارني زياد..ذلك الشاعر الفلسطيني الذي حدّثتك عنه، والذي لم أكنْ التقيت به من قبل. وكنت اتصلت به لأطلب منه حذف أو تغيير بعض الكلمات التي جاءت في ديوانه، والتي كانت تبدو لي قاسية تجاه الأنظمة..وبعض الحكّام العرب بالذات، والذين كان يشير إليهم بتلميح واضح، ناعتاً إيّاهم بكلّ الألقاب.لم أنس أبداً نظرته ذلك اليوم. توقفتْ عيناه عند ذراعي المبتورة لحظة، ثم رفع عينيه نحوي في نظرة مهينة وقال:" لاتبتر قصائدي سيدي.. ردّ لي ديواني، سأنشره في بيروت".شعرت أنّ الدم الجزائري يستيقظ في عروقي، وأنّني على وشك أنْ أنهض من مكاني لأصفعه.ثمّ هدأتُ من روعي، وحاولت أنْ أتجاهل نظرته وكلماته الاستفزازية.ما الذي شفع له عندي في تلك اللحظة؟ ترى هويته الفلسطينية، أو تلك الشجاعة التي لم يواجهني بها كاتب قبله، أم ترى عبقريته الشعرية؟...قلتُ متحدياً، وأنا ألقي نظرة غائبة على غلاف تلك المخطوطة : " سأنشره لكَ حرفياً "*** *(ذاكرة الجسد، ص١٤٩ومايليها).*ولم تهادن شخصية خالد الواقع ولم ترتض الجلوس على قضايا الأمة، كما رفض بتر صوت المقاومة الفلسطينية المثمتل في الديوان.

والحق يقال: إنّ طرائق سرد شخصية خالدعند الراوّية تتسم بنوع من المرونة فلا يصبح التاريخي هو المسيطر على الخيالي، ولا الخيالي مسيطراً أيضاً على التاريخي. بل تظل العلاقة تتسم بنوع من التمازج والتماس الذي لا يجعل جانباً يطغى على الجانب الآخر

لهذا؛ لا يمكن أنْ نعدها رواية تاريخية محضة، أو رواية خيالية محضة. بل استطاعت الراوية بأسلوبها الشعري أنْ تصنع بين هذين العنصرين مداداً روائياً.

وتأتي شخصيّة خالد كمرآة، ترصد رغبة الشعب الجزائري، الانضمام إلى صفوف المقاومة - جبهة التحرير - تمثله في شخصية حسان أخيه ." ***تلك الليلة التي قبّلتُ فيها حسان وودّعته قبل أنْ ألتحق بالجبهة. لم يسألني ليلتها إلى أين كنت ذاهباً. كان حسّان وهو في عامه الخامس عشر، قد سبق عمره بسنوات. كان مثلي جعله اليتم يكبر على عجل.. وعلمه ذله أنْ يصمت ويحتفظ لنفسه بالأسئلة. سألني: - .. وأنا ؟ وأجبته بالذهول نفسه:- مازلت صغيراً يا حسّان.. انتظرني.. فقال وكأنّه يتقمّص فجأة صوت (أمّا) وخوفها المرضيّ عليّ: - عندك على روحك.. أخالد.."*** (ذاكرةالجسد، ص ٢٨٩).

لقد تمكنت الراوية في هذا السرد من صهر كثير من المحكيات، وتوزيعها على مستويات متباينة، تقف عند موظف بيروقراطي سجين مهنته، (أستاذ اللغة العربية) والذي يتمثل بالراوي التراثي لهمومه وأسئلته وأحلامه القصيرة، وظلت قراءته على السبورة عمودية لم تتجاوز وجع الجزائر وما يعانيه من خدوش وزيف. وأستاذ ــ اللغة العربية ــ وآدابها اللذان يحملان من وعي للذاكرة الحضارية، ــ الثقافة التقليديةـ الكثير، غير أنّه كما يبدو في *ذاكرة الجسد* هناك عوامل كثيرة، تساندتْ في أنْ تجعل تلك الذاكرة، تخون الأستاذ في الجزائر، ممَّا جعله يحاول الانفلات من هذا الانتماء الذي يربطه بهذا التراث، ***" أنا لا أريد أكثر من أن أهرب من التعليم، وأن أستلم وظيفة محترمة في أيّة مؤسّسة ثقافية أو إعلامية، أيّة وظيفة أعيش منها أنا وعائلتي حياة شبه عاديّة.. كيف تريد أنْ نعيش نحن الثمانية بهذا الدخل؟ أنا عاجز حتّى عن أن أشتري سيّارة. من أين آتي بالملايين لأشتريها؟ عندما أتذكّر تلك السيّارات الفخمة التي كانت مصطفّة أمس في ذلك العرس، أمرض وأفقد شهيّة التعليم. لقد تعبت من هذه المهنة، أنت لا تشعر بأيّة مكافأة مادية أو معنوية فيها، لقد تغيّر الزمن الذي "كاد فيه المعلم أن يكون رسولاً".. اليوم حسب تعبير زميل لي "كاد المعلم أن يكون (شيفوناً) أو خرقة لا أكثر. لقد أصبحنا ممسحة للجميع. فالأستاذ يركب الحافلة مع تلاميذه. و"يدزّ" و"يطبّع" مثلهم. ويشتمه الناس أمامهم. ثم يعود مثل زميلي هذا، ليعدّ دروسه ويصحّح الامتحانات في شقّة بغرفتين يسكنها ثمانية أشخاص وأكثر. "*** (ذاكرة الجسد، ص٣٦٨).

وتثير هذه الشخصية شعوراً بالآسي والمرارة، مما يلاقيه معلموا اللغة العربية في كثير من بلادنا العربية من متاعب معيشية ونفسية. وهكذا يقدم النّص بداية صراع الشخصية، ويسرد سلبيات التعليم وتحديات الزمن له، في تعارض تملأه روح السخرية والتهكم مع بيت شعر أحمد شوقي، يوضح فيه تحوّل المعلم إلى مجرد (شيفون)، أي: قطعة مستهلكة، (قم للمعلم وفه التبجيلا – كاد المعلم أن يكون رسولاً)(٢١).

وتظهر معاناة الشخصية من خلال سرد حسان في هذا الإحساس المتكرر بالانكسار والعجز عن مواجهة الحياة في زمن الاستقلال، ***" كان في أعماق حسّان مرارة غامضة تبدو على كلّ تفاصيل حياته. ولكنّه كان يحتفظ بها لنفسه. من الواضح أنّه كان متعباً وغارقاً في مشكلات أولاده الستّة وزوجته الشابة التّي تحلم بحياة أخرى غير حياة قسنطينة المغلقة. وأمّا هو فلم يكن يجرؤ على الحلم، أو بالأحرى كان يحلم آنذاك بالعثور على شخص يتوسّط له ليحصل على ثلاجة جديدة لا غير!عندما عرفتُ أمنيته البسيطة الصعبة، حزنتُ وأنا أكتشف أنّنا لم نكن متخلفين عن أوروبا وفرنسا فقط، كما كنت أعتقد، وإلا لهان الأمر.. وبدا منطقيّاً. لقد كنّا متخلفين عمّا كنّا عليه منذ نصف قرن وأكثر. يوم كنّا تحت الاستعمار"*** (*ذاكرة الجسد، ص٣٠١*).

ويتأسف الراوي عن خيبة الاستقلال الذي كان فارغاً في مدينة كانت منارة للثقافة، ويوضح كيف أصبح الجزائريون ضحايا الصراع باشغالهم في هموم ونزاعات، أدت إلى انحسار الديمقراطية وانهيار القيم الإنسانية، وغلق منارات المعرفة، ***" يومها كنّا وطناً يصدّر الأحلام.. مع كلّ نشرة أخبار إلى كلّ شعوب العالم. وكانت هذه المدينة بمفردها تصدّر من الجرائد والمجلات والكتب ما لا تصدّره اليوم المؤسسات الوطنية لا نوعاً.. ولا عدّ***[٢٢] ***اليوم.. لم يعد أحد يشتري الجرائد ليحتفظ بها في خزانة، إذ لم يعد في الجرائد ما يستحق الحفظ. ولم يعد أحد يجلس إلى كتاب ليتعلّم منه شيئاً. لقد أصبح البؤس الثقافي ظاهرة جماعية، وعدوى قد تنتقل إليك وأنت تتصفح كتاباً. "لقد كانت الكتب دائماً على صواب في ذلك العهد، وكان الواحد منّا فصيحاً يتكلم كما تتكلم الكتب.."واليوم أصبحت الكتب تكذب أيضا..مثلها مثل الجرائد.ولذا تقلّص صدقنا..وماتت فصاحتنا، منذ أصبح حديثنا يدور فقط حول المواد الاستهلاكية المفقودة!...صحيح .. لقد خلقوا لنا أهدافاً صغيرة لا علاقة لها بقضايا العصر.وانتصارات فردية وهميّة، قد تكون بالنسبة للبعض الحصول على شقة صغيرة بعد سنوات من الانتظار.. أو قد تكون الحصول على ثلاجة، أو التمكّن من شراء سيارة، (*** ذاكرة الجسد، ص١٣٠ ومايليها***).***

ويربط الراوي في وصف دقيق انكماش الشخصية الجزائرية- حسان ـ حول ذاتها، كما انغلقتْ قسنطينة حول نفسها حينما انغلقت مظاهر الثقافة فيها. " ***هذا الرجل الفارغ القامة، المهذّب المظهر، والذي يتحدّث دائماً بحماسة الأساتذة وعنادهم وتكرارهم، وكأنّه يواصل حديثه لتلاميذه وليس للآخرين"(*** ذاكرة الجسد، ٢٨٦***).***

ويستحضر بياض سرد موت حسان الخواء والفراغ، وتقطيع صوت عتيقة، زوجة حسان، ينعي بموت الحس الوطني والجمال الإنساني في الجزائر، ويعلن دخول الجزائر في دوامة المظاهرات أكتوبر ١٩٨٨م.***" ذات يوم من أكتوبر ٨٨، جاء خبر موته هكذا صاعقة يحملها خط هاتفيّ مشوّش، وصوت عتيقة الذي تخنقه الدموع. ظلّت تجهش بالبكاء وتردّد اسمي، وأنا أسألها مفجوعاً:- واش صار..؟!!***

كنت على علم بتلك الأحداث التي هزت البلاد، والتي كانت الجرائد ونشرات الأخبار الفرنسية تتسابق بنقلها مصوّرة، مفصلة، مطوّلة، باهتمام لا يخلو من الشماتة. كنت أعرف تفاصيلها، وأدري أنّها مازالت وهي في يومها الثاني مقتصرة على العاصمة. فمن أين لي أنْ أتوقع الذي حدث؟ كان صوت عتيقة يردّد مقطّعاً قتلوه.. أخالد .. يا وخيدتي قتلوه "(ذاكرة الجسد، ص٣٨٨***).***

ويشخص السرد ظاهرة الإرهاب وأثرها في المجتمع الجزائري، هوية الإرهابيين، وهم مدججون بكلّ أنواع الأسلحة العصرية منها والتقليدية وفي الأغلب تقنية الإرهابيين تكون بسيطة وفعالة، أبواب المساكن يجري بقرها بقنابل يدوية والسيوف والفوءوس والسكاكين لتصفية الأهالي[٢٣]. وخاصة موظفي الدولة .***"عندما استلم وظيفته كان المجرمون قد بدأوا في قتل موظفي الدولة، وبعدها استشعر بالخطر إثر اغتيال زميلين له، بدأ إلحاحه بالمطالبة بسكن أمنيّ، فأعطوه بيتاً منفياً على مشارف جبل الوحش. لم يكن مرتاحاً إليه، تصوّر مسكناً أمنياً دون هاتف.. بمحاذاة غابة! أصبح كل همّ سليم توفير مبلغ من معاشه لتصفيح الباب، فقد كان المبلغ بالنسبة إليه ثروة صغيرة، وكان باستطاعته لو شاء الحصول على أضعافه لو أنّه طالب بعمولة على عشرات المعدّات التي كلّف بشرائها من فرنسا. لكنّه كان نزيهاً بالوراثة، مترفعاً وقنوعاً وكان يحب الجزائر. ولذا في زمن النهب المؤدلج وشرعة اللصوصيّة كان يقتطع مبلغاً من مرتّبه كي يتمكّن***

في لهاث الكدح اليومي، أن يظفر بباب يحميه من القتلة. لكنهم جاؤوه عندما اعتقد أنّه ظفر بالأمان. كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً عندما حطّت كتيبة الموت خلف بابه المصفح، تماماً بعد بدء منع التجوّل بقليل. مطمئنين إلى أنّ لا أحد سيأتي بعد الآن لنجدته، ومستفيدين من حالة البلبلة السائدة" *(عابرسرير، ص٢٦١ومايليها)*.

ويتحول زمن الظلام إلى زمن الجرائم والنهب في الجزائر، وكذلك إلى زمن موت الثورة وإرادة الشعب، وينحصر توقيت الإرهابيين جنح الليل والفجر وعزل جبل الوحش[٢٤] ومنع التجوال؟!، ***"على الثالثة والنصف فجراً نجح الموت في خلع الباب، كان منهاراً على ركبتيه. راح يتضرّع لهم حتّى لا يقتلوه أمام صغيره. سحبوه خارج البيت وأطلقوا عليه وابلاً من الرصاص"*** *(عابرسرير، ص٢٦٣)*.

الخاتمة:

ومن هنا نرى كيف ذهبت الراوية إلى أبعد من التاريخ، عمقت الدلالات، واستعانت بملامح حيّة من الواقع، واستثمرت الشخصية الروائية بإعادة تقييمها بما يتناسب والتحولات الجزائرية، وهنا يظهر دور الأدب في بناء علاقات ورصدالمتغيرات وصراع السلطة والجماعات الدينية، التي أسهمت فيما بعد في تكوين الهوية الجزائرية .

Abstract

The characters between the historical reality and the narrative imaginary in the trilogy of Ahlam Mosteghanemi (memory of the flesh, chaos of the senses, transient bed) Khalid bin Toubal as a model.

By Khadija Boutayeb Abdel Qader

Ahlam Mustaphanmi drew the name of Algerian history, referring to the password during the Algerian revolution of ١٩٤٥, It is a name inspired by Islamic history (Khaled ibn al-Walid) also added to the name of Khaled bin bin Tobal, a long name of the family of Constantinople fought since the Ottoman era to the French occupation in ١٨٣٠, but we see here how the narrator extended this name and linked to Algerian literature, Malek Haddad: Not in the wharf of flowers who answers.

The aim of this study is to explore the extent to which Ahlam Mosteghanemi reconciled the original text, history and photography through narrative imagination and artistic representation, the relevance of the facts to life and the social and political model, and the extent to which the reality of the conflict and the historical and social transformations in Algeria are depicted.

The transformation of the bitter Algerian people's struggle in the ١٩th century with the French colonialism that settled the land and defied the offer for more than one hundred and twenty-five years to a bitter story acquired immortality through this narration.

In my study I adopted a theological approach (Hermeneutica), which was adopted by the French philosopher Paul Riceur, which he wrote in his book Time and Narration in Three Parts.

The study examined the most important political and religious changes on the Algerian personality since the French colonial period. It also linked the role of radicalism and fundamentalism in emigration and the impact of social authority on the movement of Algerian society.

Key Words: Khaled bin Tobal.- Memory of the body.- Transient bed.

الهوامش

١) انظر: مصطفى طلاس، بسام العسيلي، *الثورة الجزائرية*، بيروت، لبنان، دار النفائس،، ١٩٨٢، ط١، ص ٩٤.

٢) انظر:إبراهيم كبة، *أضواء على القضية الجزائرية*، بغداد، مطبعة الرابطة، ١٩٦٥، ص٤٥ومايليها.
وانظر: محمد الصالح الصديق، *قاهرة الاستعمار*، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١١، ص ٢٦.

٣) انظر: عاشور شرفي، *معلمة الجزائرالقاموس الموسوعي*، تاريخ، ثقافة، أحداث، أعلام ومعالم، مراجعة: مصطفى ماضي، نقله إلى العربية: عبد الكريم أوزغلة، عمر معراجي، أنيس بن هوقة، بن يوسف جديد، عالم مختار، الجزائر، دار القصبة، ٢٠١٢، ص ٢٦٢ومايليها.

٤) انظر: فاطمة الزهراء قشي، *قسنطينة مدينةالموروثات*، مراجعة: عياش سليمان، الجزائر، وزارة الثقافة، ٢٠٠٩، ص٩١.
وانظر: ولد الحسين محمد الشريف، *عناصرللذاكرة حتى لا أحد ينسى*، من المنظمة الخاصة ١٩٤٧ – ١٩٦٢ استقلال الجزائر، الجزائر، دار القصبة، ٢٠٠٩، ط١، ص ١٨.

وانظر: آسيا تميم، *الشخصيات الجزائرية، ١٠٠شخصية التاريخية والفكرية*، الجزائر، دار المسك، ٢٠٠٨، ص ٢٤٧.

٥) انظر: مالك حداد، *ليس في رصيف الأزهار مّن يجيب*، ترجمة: ذوقان فزقر، باريس، دار جالمار، ١٩٦١، ص ١٥، ١٢٠.
وملخص الرواية، يدور حول قصة فتاة طارقية من صحراء تاسيلي في الجزائر تدعى يمينة، تربطهاعلاقة حبّ مع مولاي، هو الأخر من صحراء الجزائر ـ ورقلة ـ يعمل سائق شاحنات في الطرثق الصحراوي، ولذا، طلبتْ منه يمينة أنْ يحضر لها غزالة شرطاً أنْ تكون حيّة، غير أنّه في أحدى الأيّام تعرض للموت ونفذ منه الماء. في لحظات الاحتضار تراءت له غزالة ولكن في صورة يمينة، وهي على وشك الوضع.وقالتْ له: سوف اسميّ المولود مولايّ. الغزالة هنا هي رمز للجزائر إبّان الاستعمار الفرنسي، وترمز إلى جزائر الأمل القادم.

٦) انظر: المرجع نفسه.

٧) انظر: عبد السلام يخلف، *أحلام مستغانمي الحلم أو حين تطلع أغنية من أحراش الكلمات*، مجلة الاختلاف، الجزائر، دار الاختلاف، العدد ٣، ٢٠٠٣، ص ٣٧.

٨) انظر: منى طلبة، *الهرمنيوطيقا، المصطلح والمفهوم، للسرد عند بول ريكور*، مجلة إبداع، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، السنة السادسة عشرة، إبريل ١٩٩٨، ص٦٧ومايليها.

٩) انظر: محمد العربي الزبيري، *تاريخ الجزائر المعاصر*، الجزائر، إتحاد الكتاب الجزائريين، ٢٠١٤، الجزء الثاني، ص ٧٩.

١٠) وردت كلمة" برغم " هكذا في كل متن الراوية والصحيح بالرغم .

١١) انظر: فاطمة الزهراء قشي، *قسنطينة مدينة وموروثات*، مرجع سابق، ص ١٥٣.
كان التعليم قبل الاستعمار يلقن في المساجد والمدارس التابعة لها، وكانت دراسة القرآن وأصول الدين تحتل حيزاً كبيراً، ثمّ جاءتْ المنظومة التعليمية التي أدخلها الاستعمار الفرنسي حيث مدارس للأوروبيّين ومدرسة لأتباع الديانة الإسرائيلية، ومدرسة عربية فرنسيّة لم تستقبل إلا بعض أبناء المسلمين، كذلك موسوم المؤرخ بـ (٣٠/ ١٠، ١٨٨٥)، ينص على وضع التعليم في المدارس الإسلامية الجزائرية تحت إشراف الحكومة الفرنسية وعليه أغلقت عدة مدارس إسلامية.
ونقلا: إبراهيم كبه، *أضواء على القضية الجزائرية*، مرجع سابق، ص٦٧، ٤٨٦.
نسبة الأطفال المتعلمين هي ١٠٠% بين الفرنسيّين، بينما لا تتجاوز ٨% بين العرب، وتتجاوز الأمية بين العرب ٩٠% من عدد السكان. والتعليم الثانوي يكاد يكون معدوماً حيث فرنسا لاتنظر للجزائري بأنّه يملك عقل مثل عقل الفرنسيّين وعليه ترى أنّ التعليم لايفيده.
وأصبحت اللغة الفرنسية هي لغة الجزائر بقرار عام١٨٣٤ .
وانظر: أبو القاسم سعد الله، *(الحركة الوطنية الجزائرية* ١٨٣٠ـ١٩٥٥)، القاهرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات، ١٩٩٦، الجزء الثاني، ص ٦٥ .

١٢) انظر: عفرون محرز، *ملحمة الجزائر المصورة* من ماسنيسا إلى ٥ جويلية ١٩٦٢، ترجمة: مسعود حاج مسعود، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٣، ص ٢٠ومايليها.

١٣) انظر: نبيل أحمد *بلاسي، الإتجاه العربي الإسلامي ودوره في تحرير الجزائر*، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥، ص ١٨٢.

١٤) انظر: عمارعمورة، *بوابة التاريخ* ما *قبلالتاريخإلى١٩٦٢*، الجزائر، دار المعرفة، ٢٠٠٩، الجزءالثاني، ص٣٥٥.
الفالاقة هي عبارة عن ربط رجلي المعاقب بعضهما ببعض إلى عصا بالعرض يمسكها أحدهم للتثبيتْ، ويقوم الأخر بضرب المعاقب بعصا أخرى على رجليه المتبثتين وتسمى بالفلقة، كما أن الفلقة كانت سائدة إبّان الحكم الفرنسي تمارسه ضد الأهالي بالضرب على أرجلهم .

١٥) انظر: أبوالقاسم سعد الله، *الحركة الوطنية الجزائرية (١٨٣٠ـ ١٩٥٥)*، القاهرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات، ١٩٩٦، الجزء الثاني، ص٦٤.

١٦) انظر:إعداد مركز الدراسات والأبحاث في دار الكاتب العربي، *الجزائر إلى أين*، القاهرة، دار الكاتب للنشر، ١٩٩٢، ط١، ص٤١ومايليها.

١٧) من سورة العلق، الآية، ١.

١٨) انظر: محمود السيد، *تاريخ دول المغرب العربي، ليبيا - تونس - الجزائر – المغرب – موريتانيا*، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ٢٠٠٠، ص١٨١.
تونس ومصر وخاصة ليبيا التي شكلت وضعاً خاصاً لهذه الثورة، لأنّ أراضيها كانت مسرحاً لقتال

جيوش الحلفاء والمحور وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانيّة، تركت تلك الجيوش على أرضها فائضاً من الأسلحة، فتمّ التنسيق بين المقاومة الجزائرية، والملحق العسكري المصري بطرابلس على إرسال الأسلحة إلى الجزائر عن طريق الجنوب الليبي.
وانظر: أحمد منصور، *برنامج شاهد على العصر، حوار مع أحمد بن بلّة*، إنتاج قناة الجزيرة نت، ٢٤/ ٤/ ٢٠١٢.
كانت الإمدادات المصرية للثورة الجزائرية، تمّر عبر الأراضي الليبية، وجاء هذا الاعتراف على لسان أحد قادة الثورة هو أحمد بن بلّه، حيث صرح أنّ الإمدادات المصرية تمر على طريق مدينتي: درج وغدامس.
لتأكيد هذه الملاحظة، والدي: بوطيب عبد القادر، كان من ضمن المجاهدين الذين تولوا مهمة إدخال هذه الأسلحة إلى أرض الجزائر عن طريق بعض منافذ العبور الحدودية، ذات يوم وقع في كمين فرنسي وتعرض للسجن عام١٩٦١، وحكم عليه بالإعدام، لكن بمشيئة الله، سقطتْ العقوبة ضده.

١٩) نقلا: عن زهرة ديك، *أحلام مستغانمي، هكذا تكلمت..هكذا كتبت*، الجزائر، دار الهدى، ٢٠١٣، ص٣٥.
استيقظتْ قسنطينة داخلي، مدينة لم أعرفها، لكن كانت مسكونة داخلي بجسورها وعاداتها، أمي تحكي لي أشياء عن قسنطينة، ووالدي يحكي عليها طول الوقت.بدأتْ تأتيني بلباسها التقليدي وتاريخها العريق .

٢٠) انظر: ألبير كامي، *الغريب*، ترجمة: محمد غطاس، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٥٧، ص١، ص، ٦، ٧، ٤٨، ٥٤، ١١٢.
كان يعيش البطل حياته، وكأنّها غير متصلة بالزمن الداخلي، قتل رجلاً سود على الشاطئ، ولم يحس بموت أمه، بل ذهب إلى السنيما ولم يتصالح مع الحياة إلا بعد أحد عشر شهراً التي قضاها في السجن، وأدرك أنّ علق الزمن على نفسه، هو ما سبب له كل هذه الغرابة في سلوكيات.

٢١) ديوان: *أحمدشوقي*الشوقيات، *في السياسة والتاريخ والاجتماع*، بيروت، دار العودة، ١٩٨٨، الجزء الأوّل، ص ١٨٥.قُم للمُعَلم وَفه التَبجيلاكادَ المُعلمُ أنْ يكونَ رسولاً.
وهو شاعر مصري يعد من أشهر شعراء العربية ولقب بأمير الشعراء .

٢٢) انظر: إيمان قادري، *ابن باديس*، الجزائر، دار سفيان، ٢٠١٣، ط١، ص١٢ ومايليها.
تمثل دور جمعية علماء المسلمينفي قسنطينة بعدة نشاطات، منها: إصدار جريدة النجاح عام ١٩١٩، ثمّ إنشاء المطبعة الجزائرية الإسلامية، وجريدة المنتقد تحت شعار "الحق فوق كلّ أحد والوطن فوق كل شيء". ونجحت الجمعية في إصدار ثمانية عشر عدد إلى أنْ أوقفتها الإدارة الفرنسية ثم جريدة السنة والشريعة، وكذلك جريدة الصراط والبصائر عام١٩٣١.

٢٣) انظر: لياس بوكراع، *الجزائر الرعب المقدس* مئة ضحية جزائرية للإسلاموية قبل ضحايا ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ الثلاثة آلاف وخمسمئة، ترجمة: خليل أحمد خليل، تقديم: إرقية بورج، بيروت، دار الفارابي، ٢٠٠٢، ص٣٦٧.

٢٤) انظر: *مختار فرزولي ونوال بوجاجة، قسنطينة مدينة النسور*، الجزائر، منشورات Cdsp editions، ٢٠١٣، ص ٩٨.
جبل الوحش في قسنطينة يبعد عنهابحوالي ٧كلم وهو عبارة عن كتلة ضخمة من الغريس ويعد الآن فضاء طبيعياً ومتاحات غابية متفرقة هامة للسياح للهروب من ضجيج المدينة والاستمتاع بالهواء النقي.